مقدمة

يعرض أمام القضاء فى كل يوم عديد من القضايا التى تقدم مؤيدة باتهام ما . . لا يلبث أن يضطرب — ولا نقول يتبدد — أمام دفاع ما ، وفى وسط هذا الجو المملوء بالأخذ والرد ، والدفع والجذب ، والنضال والكفاح سواء من جانب الاتهام أو الدفاع . . يصدر القضاء حكمه ، ولكن تبقى بعد ذلك — ومع ذلك — هذه القضايا مكانها دون أن تحل بصفة واضحة قاطعة لا يرقى إليها الشك . . إذ تبقى حائرة بل محيرة ! ! وتجعل الناس — وبالرغم من صدور الأحكام فى القضايا التى من هذا النوع — فى شك من الاتهام الذى قدمت به . . والدفاع الذى حاول استخلاص البراءة من براثن الاتهام . . والقضاء الذى وإن أصدر حكمه منهياً للنزاع فإنه يكون فى الحقيقة قد عجز عن أن يؤيد الاتهام الممسك بالتلابيب . . أو يسير مع الدفاع الماهر إلى النهاية .

مثل هذه القضايا من الأمور التى لا تنسى بسهولة . . وبالرغم من تقادم السنوات فإنها تظل عالقة بالأذهان ، محيرة للألباب . . إذ تبقى اليوم كما كانت بالأمس البعيد . . حائرة بين الاتهام والدفاع والقضاء .

ولقد شهد القرن الماضى محاكمات تاريخية عدة من هذا الطراز . . كما وأن القرن الحالى حفل بعديد منه . . وهكذا نشأ نوع من الأدب يسمى « أدب المحاكمات » ، فاهتم الكتاب — حتى من كان من رجال السياسة منهم — بوضع مؤلفات يسردون فيها ملخصات أو وثائق المحاكمات التى جرت فى أشهر القضايا فى مختلف أنحاء العالم . . ودفعهم إلى ذلك ما كانت تبديه الجماهير المختلفة الطبقات والأشكال من اهتمام بالغ بمثل هذا النوع من القضايا والمحاكمات . . وهو الاهتمام الذى لا يزال على أشده حتى وقتنا هذا . . فما لا شك فيه أن محاكمة ذات طابع خاص لابد وأن تثير الرأى العام المحلى والدولى معاً إثارة كبرى . . هذا إلى أن الرأى العام نفسه ينقسم بدوره انقساما واضحاً بشأن ما يدور فى هذه القضايا أو المحاكمات . . وقلما يصل إلى اتفاق بشأن واحدة منها مما يزيد فى الأمر أهمية وأثراً . . بالرغم من صدور الأحكام التى تعد منهية لهذه القضايا والمحاكمات من الوجهة الرسمية .

ولقد ساعد الناس على عدم قبول ما يصدر من أحكام فى مثل هذه القضايا دون مناقشة أو تعليق أو تعقيب ، أن بعض هذه القضايا قد أصبح فى ذمة التاريخ من جهة بعد أن طال العهد عليها وتقادم الزمن . . كما وأن كثيراً من التشريعات الأجنبية تجيز لا لأولى الأمر فقط بل لغيرهم من الأشخاص والجماهير أن يطالبوا باتخاذ إجراءات

جديدة — كل تشريع بحسب نظامه — فى سبيل تبرئة شخص أو إدانة آخر . . أو كشف الستار عن شىء لم يكن فى الحسبان .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما كان يجرى فى القضاء الإنجليزى ولا يزال يجرى إلى الآن . . فإن هذا القضاء لم يكن يعرف فى القرن الماضى وفى أوائل القرن الحالى نظام الاستئناف . . فكان إذا صدر حكم على متهم فى قضية من ذلك النوع المحير الغامض . . هبت الجماهير بين مؤيدة للحكم ومعارضة لما قضى به . . وتبعتها الصحافة معقبة ومعلقة ، والتفت الناس جميعاً إلى الملك أو وزير الداخلية ليستعمل حقه الذى خوله القانون بالأمر بتخفيف حكم صدر بالإعدام مثلا ، أو بطلب إعادة محاكمة متهم من جديد بعد أن أصدر القضاء حكما قاسياً ضده .

وتاريخ المحاكمات ملىء بالقضايا التى تكون متماسكة تمام التماسك بحيث إذا صدر حكم نهائى فيها قبلت الجماهير هذا الحكم فى سهولة ويسر دون تعليق أو تعقيب على موضوع المحاكمة نفسه . . ومن حسن الحظ أن هذه هى الغالبية العظمى للقضايا . . ولكن يبقى إلى جوار ذلك عديد من القضايا من الطراز الآخر الذى أشرنا إليه فى أول هذه الكلمة . . وهو طراز حظى باهتمام مؤرخى الحوادث الجنائية ، وعلماء الجريمة والإجرام ، والمهتمين بالمحاكمات الكبرى وما يدور فى خلالها من تصارع فى الأفكار ، وتصادم فى الآراء ، وكفاح بين جهابذة رجال العلم والطب والقانون .

ولا نريد فى هـذا الـكتاب أن نعنى بالقضايا التى من النوع الأول . . بل إن عنايتنا ستوجه إلى النوع الثانى لأنه فضلا عن كونه غريب لقراء العربية فهو فى الوقت نفسه أدعى بالتسجيل والسرد لما يثير من اهتمام خاص لدى القارىء . . إذ يجد نفسه مدفوعاً بدافع غريزى إلى الاشتراك فى إبداء الرأى — ولو فى سريرة نفسه — فيما يقرأ من تفصيلات أو تعليقات .

ولم يعتد الجمهور المصرى أن تسرد أمامه تفاصيل محاكمات أو قضايا من هذا النوع . . بل إنه اعتاد دائماً أن يقرأ عن قضايا تاريخية عظمى اعترف فيها المتهمون . . وكان ولابد أن يحكم عليهم بالإدانة فيها نظراً لظروف سياسية أو ثورية خاصة . . ولذلك فإنه سيجد فى النوع الذى يضمه هـذا الـكتاب ذخيرة جديدة من قضايا ومحاكمات تمت بالخارج فى القرن الماضى . . وفى خلال هـذا القرن حتى العام المـاضى والتى تعد من النوع الحائر بين الاتهام والدفاع والقضاء على ما وصفنا وبينا .

* * *

والقضية الأولى التى عرضت فى هذا الـكتاب هى قضية الدكتور « هاولى هارفى كريبن » الذى اتهم بقتل زوجته والتمثيل بهـا وحوكم بسبب ذلك فى لندن عام ١٩١٠ . . وهى قضية لا زال يذكرها الشعب الانجليزى . . ولا ينسى تفاصيل المحاكمة التى جرت بشأنها . . ولقد ظل

هذا الدكتور المتهم مصراً على براءته إصراراً تاماً من دم زوجته حتى صعد إلى المشنقة . . ولقد قيل يوماً ما أنه اعترف بجريمته ولكن هذا القول لم يتأيد بالمرة . . ولقد تبعت محاكمته وإدانته محاكمة عشيقته « أثيل له نيف » التى قضى ببراءتها بالرغم من أن الرأى العام كله كان يتوقع توقعاً تاماً أنها ستلحق بالطبيب القاتل إلى المشنقة .

ولقد ظل « هنرى ديزيريه لاندرو » — زئر نساء فرنسا كما أطلق عليه — أكثر من سنتين رهين الحبس الاحتياطى ، وهدفاً — فى خلال هذه المدة — لحملات صادرة من جميع الطبقات . . وذلك على أثر التحقيق معه بتهمة قتل عديد من النساء . . ومثل بعد ذلك أمام محكمة (ڤرساى) ووجه بآلاف المستندات ومئات الشهود . . ولكنه وقف بمنصة الاتهام فى روعة وثبات منكراً ما وجه إليه من اتهام مدافعاً عن براءته فى مهارة كبيرة ومجيبا على الأسئلة التى وجهت إليه فى كياسة وحصافة مما كان يبعث الأمل لدى الكثيرين من أن براءته ستعلن عقب المحاكمة ، ولكن الحكم صدر بإعدامه . . فهاجت الجماهير عليه ، مما أدى بالنائب العام إلى التدخل لحمايته ، وإلى سب هذه الجماهير الشامتة فيه . . وبعد ما أرسل إلى السجن فى انتظار تنفيذ حكم الإعدام كتب إلى النائب العام رسالة فذة يؤكد فيها أنه برىء براءة تامة .

وفى عام ١٩٢٤ حوكم شاب يافع هو « نورمان ثورن » بلندن بتهمة

قتل خطيبته ، وعثر على أشلاء هذه القتيلة بمزرعته بعد أن أنكر رؤيته لها منذ اختفائها . . ولقد ظل على هذا الإنكار حتى لقى حتفه شنقا . ولقد كانت محاكمته ميداناً واسعاً للبحث الطبي وللنضال العلمى . وبالرغم من صدور الحكم المشار إليه عليه ، فإن كثيراً من جهابذة الأطباء أخذوا يؤيدون براءته فنياً وعلمياً .

ومن أغرب القضايا التى من هذا النوع قضية « أوسكار سلاتر » فقد حوكم هذا الرجل فى عام ١٩٠٩ بعد أن استجمعت ضده أدلة متناثرة واهية . . وحكم عليه بالاعدام وخفف هذا الحكم إلى السجن المؤبد . .

ومضت الأعوام حتى كان عام ١٩٢٦ إذ أعيدت محاكمته من جديد بعد أن نصره كثير من الكتاب وذوى الرأى ومن عجب أنه قضى فى المحاكمة الثانية ببراءته ، والأدهى من كل ذلك أن الحكومة الإنجليزية دفعت له تعويضاً على ما ناله من عنت وظلم ستة آلاف من الجنيهات واعتذر له رئيس الوزارة الامبراطورية رسمياً بمجلس العموم .

وقد حوكم الدكتور « جورج هنرى لامسون » فى أواخر القرن الماضى بتهمة قتل شقيق زوجته الكسيح ، وكان فى مقدور المتهم الهرب من وجه العدالة ، ولكنه تقدم إليها بخطى ثابتة وأعلن براءته ، ولكن حكم الاعدام صدر عليه بالرغم من أن زوجته شقيقة القتيل أيدت براءته وظلت على رأيها هذا حتى بعد إعدام زوجها .

وفى عام ١٩٢٢ أغتيل فى المساء وعلى مشهد من المارة بمدينة

لندن سائق إحدى سيارات الأجرة واتهم بقتله مجرمان عريقان وقدم واحد منهما فقط إلى المحاكمة ، وكان على القضاة والمحلفين أن يتبينوا من أقوال هذين المجرمين المتضاربة ومن الأدلة التى استجمعت واستمدت من مجرد أقوالهما ما يؤيد نسبة الجريمة إلى أحدهما . . ولقد أصدر القضاء حكمه بإعدام واحد منهما وأطلق سراح الثانى . . كل ذلك والجماهير على خلاف فيما جرى فى التحقيقات والمحاكمة والإجراءات . . بل لا زالت على خلاف فى هذا الشأن حتى اليوم .

وفى القرن الماضى قتلت « جيسى مكفيرسون » واتهمت امرأة من صديقاتها بقتلها . . وانقسمت انجلترا واسكتلندا بشأن هذا الاتهام إلى قسمين لا يعترف أحدهما بوجهة نظر الآخر ، واستظلت المتهمة بظل المشنقة مرتين ، ثم سجنت بعد ذلك خمسة عشر عاماً خرجت من بعدها لتتزوج من جديد برجل اقتنع ببراءتها .

وفى أواخر القرن الماضى أيضاً حوكمت « فلورنس اليزابيث تشاندلر » بتهمة قتل زوجها بعد أن دست السم له ، وتبين فى أثناء المحاكمة أن هذه المتهمة كانت على صلة عاطفية خاطئة بشخص غير زوجها ، ولعب ذلك الأمر فى المحاكمة دوراً كبيراً ، وبعد ما صدر الحكم بإعدامها أعلنت فى صراحة براءتها وقالت أن هذا الحكم إنما صدر عليها لمجرد ما ثبت من علاقتها الدنسة ، وأيدها فى رأيها هذا كثيرون . . بل أن الأمر أدى إلى الطعن فى مقدرة القاضى الذى حكم عليها . . مع أنه كان

ولا يزال بعد إلى الآن ممن تفتخر بهم انجلترا فى ميـــدان العمل القضائى والتشريعى .

وكانت محاكمة « ستين موريسون » من أروع المحاكمات التى تمت فى انجلترا أيضاً فى أوائل هذا القرن . . ولقد أتاحت الصحف لنفسها أن تتحدث فى صراحة عن براءة هذا الرجل الذى صدر الحكم بإعدامه مداناً بقتل صديقه الروسى اليهودى . . بل أنها أفاضت فى هذا واسترسلت ، وكان كل ذلك يلقى من الجماهير التى اقتنعت ببراءة « موريسون » تحبيذاً كبيراً . . ولا يعرف إلى الآن هل كان الحكم على حق أم لا . . بعد كل هذا التشكك فى أمره .

وفى أواخر عام ١٩٤٧ اتهم « جيمس كامب » بقتل الممثلة الفاتنة « جاى جبسون » وبإلقاء جثتها فى المحيط . . وكان « كامب » عاملا بالمركب التى استقلتها الممثلة من جنوب أفريقيا إلى انجلترا . . وحوكم هذا المتهم فى أوائل العام الثانى وسط اهتمام كبير أعاد إلى الأذهان ذكرى المحاكمات التاريخية العظمى لأنه لم يعثر على جسم الجريمة الذى ألقى إلى اليم باعتراف المتهم بعد موت صاحبته ميتة طبيعية فى أثناء مباشرة عملية جنسية معها . . لا بعد قتلها لمقاومتها له كما كانت نظرية الاتهام . ولقد حكم بعد ذلك على هذا الرجل بالإعدام فتألفت جمعيات وهيئات للدفاع عنه ولإعادة محاكمته ، وأفلت بالفعل من تنفيذ حكم الإعدام عليه بعد ما وافق مجلس العموم على إلغاء هذه العقوبة لمدة

خمس سنوات ، وكان « كامب » أول من استفاد من هذا الإلغاء .

فى كل هذه القضايا التى فصل فيها القضاء ، ظل الأمر فى جوهره محل شك وحيرة ، إذ أن اعترافاً من المتهمين فيها لم يصدر إطلاقاً ، وأدلة قوية لا يرقى الشك إليها من الاتهام لم تطرح . . ولهذا كانت مهمة القضاء عسيرة فى كل المحاكمات التى جرت فى هذه القضايا . . ولكن القضاء لم ينكل عن الفصل وإصدار الأحكام باذلا فى كل ذلك كل جهد . . عاملا على تمكين أسس العدالة وإقامة صرحها . . تاركا العلم الصحيح عند علام الغيوب.

إنى أرجو أن تكون هذه القضايا التى سردت باختصار فى هذا المؤلف قد سدت نقصاً فى أدب المحاكمات الذى له خطره ووضعه الجديد بين الآداب المختلفة الحديثة . . كما أرجو أن يكون فى سردها تبيان للناس على اختلاف مداركهم ودرجاتهم لمدى ما يبذله رجال القضاء الواقفين أو الجالسين من مجهودات جبارة فى سبيل الوصول إلى كشف الحقيقة وإقامة دعائم العدالة وتشييد صرحها ولو لم يرضوا فى النهاية بعضاً من الناس اكتفاءاً بإرضاء ضمائرهم ونفوسهم التى تستمد الوحى من الله ، وتهدف دواماً إلى الحق والعدل ؛ فإرضاء القاضى لضميره هو همه الأول ، والوصول بالنزاع الذى أمامه إلى بر العدالة هو هدفه الأخير .

محمد حافظ

المراجع

Famous Trials of History (Eart of Birkenhead). . . . . .

Famous Trials . . . . . ,

Great Unsolved Crimes (Various Authors) . . . . . .

Cases of Sir Bernard Spilsbury .

Extraordinary Crimes . . . . .

Behind the Bar (B. H. Bowker). .

British Justice . . . . . .

Sunday Express - News of the World Mastier Detective (Periodicals) . . . . . .